قراءة في ديوان خفقات قلب للشاعر عبدالحفيظ صقر

بقلم: محسن عبدالمعطي عبدربه
مصر

الشاعر عبدالحفيظ صقر من الشعراء الذين وهبوا حياتهم للشعر فالشعر هو حياته، إلا أن شاعرنا كان يعتز بلون واحد من ألوان الشعر، ويزهو الشاعر ويفتخر بهذا اللون من الشعر الذي قصر حياته عليه ألا وهو الشعر الإسلامي من حب لله تعالى ورسول ﷺ، إلى قضايا أمته التي يرسم صورتها بين الأمم ويعبر عن همومها، وآمالها وآلامها، كما كان يعبر عن أحاسيسه الذاتية من خلال الإطار الإسلامي الصرف، عرفته شاعرا ملتزما بقواعد الشعر العربي الأصيل من حيث المحافظة على الوزن والقافية وقواعد لغتنا الجميلة ولا عجب!! فشاعرنا كان يعمل مدرسا للعلوم العربية بكل من دار المعلمين، ودار المعلمات بمدينة المحلة الكبرى بجمهورية مصر العربية، وكان يكتب القصيدة ملتزما بجميع الأدوات الفنية التي ترفعه إلى قائمة الشعراء المتميزين، أعير للعمل في التدريس في بعض الدول العربية الشقيقة التي اعتزت بشعره وأعجبت به فوضعته ضمن المقررات الدراسية لكتب اللغة العربية في مدارسها . وقد تعرفت على الشاعر عن قرب من خلال حضورنا معا ندوات الأدب وأمسيات الشعر في نادي الأدب بقصر ثقافة المحلة الكبرى وقد انتقل الشاعر إلى رحمة ربه منذ سنوات قليلة تاركا لنا ثروة شعرية هائلة.

وديوان شاعرنا عبدالحفيظ صقر (خفقات قلب) صدر عن دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية بالقاهرة وكانت الطبعة الأولى منه في عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م في حياة الشاعر وقد أهداه إلى الشرفاء في كل زمان ومكان، ومن قبل صدور هذا الديوان بأكثر من ربع قرن أهدى الشاعر ديوانه الأول (أصداء الوجدان) إلى أشقائه في الآلام والأمال، ويتكون الديوان من مئة وثلاث وأربعين صفحة من القطع المتوسط بما فيها فهرس الديوان، ويشتمل على تسع وثلاثين قصيدة كلها تدور في فلك الشعر الإسلامي.

الشاعر والإسلام

والشاعر حريص كل الحرص أن يكون وفيا لدينه الإسلامي وأن يكون شعره – بصفة دائمة – أداة للدفاع عن هذا الدين وهو يعلن بصراحة ووضوح وفخر أن الإسلام أبوه وأن قلبه ممتلئ بالحب لذلك الأب . ولهذا فهو يدين له بالولاء طوال حياته ولنستمع إليه وهو يقول في قصيدته «تلبية» والتي ألقاها بجمعية الشبان المسلمين في القاهرة:

لبيك إسلامي من الأعماق
أنا لم أخن عهدي ولا ميثاقي
لبيك في شرق وفي غرب هنا
وهناك، في الأرجاء والآفاق

لبـــيك إني لم أزل بك هاتفـــا
مـا جن ليلي أو صحـا إشـراقي
إني أنا ابنك مـا جفـوتك يا أبي
مـا زال حـبك سـاكنا أعمـاقي

ويبين الشاعر جهاد المسلمين الأوائل وتضحيتهم بأنفسهم، واستشهادهم في سبيل الحق، من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . فيذكر أن هؤلاء الأجداد كانت انطلاقتهم الأولى من الصحراء، التي تحولت إلى جنة خضراء على أيديهم، وكانوا ريا للقلوب المتعطشة إلى الإسلام في كل أنحاء الدنيا، ففكوا عنها قيود العبودية والجهل والظلم، ويوازن الشاعر بين هؤلاء الأجداد وأبنائهم الذين أضاعوا مجدهم، بسبب الفرقة والخلاف وعدم تمسكهم بدين الله، فهم يتأولون الدين وفقا لميول مدنية جوفاء مقفرة . وهم يتمسكون بكل ما يروق لهم من الشريعة الإسلامية وينأون عن كل مـا فيه تكليف وإرهاق في هذه الشريعة السمحة، ويبحثون فيها عن كل ما فيه مغنم فقط، ولكن الشاعر لم يزل بأبناء الإسلام يدعوهم إلى الاتحاد والالتقاء على كلمة الحق والبعد عن الخلاف، يقول الشاعر:

لكنني مهما تناسوا عهدهم
باق على عـــهـــد الأبوة باق
فلكم عدوت بناظري في إثرهم
أدعـــوهم لتـــجـــمع وتلاق
وبعثت خلفهم النداء ولوحت
كـــفي لهم بندائك الخـــفـــاق

ويتحدث الشاعر عن أمانة الإفتاء وأنه ينبغي ألا يتصدى للإفتاء إلا من هو أهل له، ويدعو الشاعر المسلمين إلى العودة لكتاب الله الذي يهديهم وينقذهم ويفتح الله عليهم أبواب فضله وأسرار عطائه لتمسكهم به، فذلك الكتاب نبع السعادة وطب النفوس وبلسم الأرواح، ويختم الشاعر قصيدته بذلك التشبيه الضمني الجميل في قوله):

يا أيهـا الإسـلام إني هاهنا
متـمسك بالعـهـد والميـثـاق
كل افـتـخـاري أنني لك منتم
مـهـمـا رمـتك عـصـابة الفـسـاق

ولئن تتـــابعت الخطوب فـــإنما
في النار يصـفـو التـبـر بالإحـراق

تعريف الشعر

وفي قصيدته « في رحاب الرسول» يضع شاعرنا عدة تعريفات جميلة وصادقة للشعر حيث يعرفه بأنه أصداء، وترجمة صادقة لشعور النفس الإنسانية، والشعر هو الخلود، يموت الشاعر ويظل شعره يحيي ذكراه بين الناس، والشعر فيض من الله يبعث في النفس المؤمنة روح الأمل وقت المحن والشدائد، يقول شاعرنا في تعريف الشعر:

فـأنت يا شـعـر أصـداء وترجـمـة
للنفس صادقة تبقى على الزمن
أنت الخلود بأنغـام مـوقـعـة
تحيي المشاعر إذ تنصب في الأذن
الله ملهـمـهـا للروح تصـقلـهـا
والنفس تنقذها من وطأة الحزن
قيثارة الخلد لم يصمت لها نغم
وبلبل أبدا يشـدو على فنن
فيض من الله يحـيـينا إذا ذبلت
بين الضلوع المنى من قسوة المحن

ينبوعه الثر في الأعماق يثلجها
فيزهر البشر في الأرواح والبدن

موقف الإسلام من الشعر

نقل عن ابن دريد بسنده : أنشد حسان رضي الله عنه النبي ﷺ قصيدته التي منها(١):

أتهجوه ولست له بند
فشركما لخيركما الفداء

فقال من حضر : هذا أنصف بيت قالته العرب

وكأني بشاعرنا يستشهد بهذه الواقعة من استحسان المصطفى ﷺ شعر حسان والخنساء على موقف الإسلام من الشعر وأنه أجاز الحسن منه (٢) فيقول:

كم أطرب المصطفى تغريده فمضى
يصغي لحسان في إنشاده الحسن
يقول : هيه أيا خنساء في شغف
إذ تنشد اللحن ألوانا من الشجن
يثني على حكم في الشعر تسحرنا
وتأسر اللب لا تخفى على الفطن

شاعر الطبع والصنعة

الشاعر عبدالحفيظ صقر من الشعراء الذين لا يتكلفون القول فهو شاعر مطبوع لا يقول الشعر إلا إذا ناداه الشعر ودعاه القول . فما الشعر عند شاعرنا إلا ألحان قلبه يرددها إذا زالت متاعبه وآلامه وليست الآلام وحدها هي القيد الذي يمنع شاعرنا من الكتابة، ولكن هناك قيود كثيرة وربما كانت هذه القيود في رأيي تتمثل في الأمور الآتية:

١- الإرهاق الجسماني الشديد الذي لا يتيح للشاعر الصفاء الذهني

٢- انشغال الشاعر بمهنة التدريس التي تتطلب مجهودا فكريا كبيرا ودقة بالغة حتى يؤديها صاحبها على الوجه الأكمل، وبخاصة أن الشاعر كان يشتغل بالتدريس في أكثر من مدرسة .

٣- عدم دخول الشاعر في عملية النظم خاصة وأنه يريد لقصيدته أن تخرج من قلبه إلى قلب المتلقي .

ولنستمع إليه وهو يقول:

يسائلني صديقي عن قصيدي
وما عندي وحقك من جديد
فما شعري سوى ألحان قلبي
يرددها إذا زالت قيودي
قيود لا يراها غير نفسي
فما قيدي كغيري من حديد
ولكن في دمي قيد رهيب
وماهو - بعد- بالقيد الوحيد
هي الآلام تقتل كل فكر
تمزق بهجتي في كل عيد
وتلقي فوق وجهي ظل سحب
تصور حيرة الفكر الشريد
فلا تعذل أخاك إذا تأبى
عليه الشعر في هجر مديد

الإسلام دين العلم

وفي قصيدة « فجر النور» يذكر شاعرنا أن الإسلام دين العلم، وأبلغ دليل على ذلك أن أول ما نزل من القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين هو قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾، (الآيات) ويرى أنه بالعلم تصل الأمة إلى أعلى مراتب التقدم وأن العالم لا يستوي مع الجاهل، وذلك في قوله:

اقرأ محمد باسم ربك إنه
قد علم الإنسان ما لم يعلم
إن القراءة للتعلم سلم
فمن ارتقى اجتاز العلاء بسلم
بالعلم تنقذ أمة من جهلها
فتتيه بالعرفان فوق الأنجم
لا يستوي العلم المشع منارة
بالجهل يرزح تحت موج مظلم

ويهدف الشاعر في البيت الأخير إلى غرض بلاغي هام، وهو بيان عدم الاستواء في المنزلة، وأعتقد أنه أخذ هذا المعنى من قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الألباب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر) . ويمدح شاعرنا الأزهر الشريف الذي يضيء الدنيا بالعلم فيقول:

يضيئ غياهب الدنيا ويهدي
إلى الإيمان كل الحائرينا
بقرآن وتوحيد وفقه
وعلم نافع دنيا ودينا

والشاعر يحب العلم ولا ينكره أبدا إلا حين يسخر في صناعة أسلحة الدمار الشامل التي تبيد البشر، فيقول:

العلم نور ولست الآن أنكره
لكنه ربما قد شب نيرانا
فكم رأى الهول منه واصطلى لهبا
إنسان كوكبنا الأرضي أزمانا

الشاعر والمعلم

وشاعرنا مع حبه الشديد للعمل ومع أنه كان معلما مخلصا، وفيا لمهنته إلا أنه يرثي المعلم حيا حيث يعيش في بؤس وفي كرب، يقتات آلامه ولا يشتكي همه إلا لله، فهو كالشمعة تحترق وتضحي لتضيء لغيرها الدرب، ويذكر شاعرنا أن المعلم معرض للاعتداءات والتهديد وكل ألوان الخطوب أثناء الامتحانات، وبالإضافة إلى ذلك فهو يعمل ليل نهار في مهانة وذل ولا يلاقي جزاء عادلا لعمله سواء أكان هذا الجزاء ماديا أو معنويا حتى ذهب نور عينيه وغطى الشيب رأسه وتقوس ظهره فيقول:

ماذا لقيت من الدنيا وبهجتها
يا شعلة الضوء تمحو ظلمة الدرب
يا رائد الفكر في الدنيا ومرشدها
إذا الطريق اختفت عن أعين الركب
يا وارث الرسل في هدي ومعرفة
فهل ورثتهم في الفقر والجدب؟!
وكيف تسطيع والأهوال محدقة
حمل الأمانة في صبر وفي حب

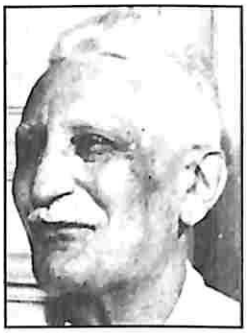
العقاد

تحية للأستاذ العقاد

ويذكر شاعرنا في الذكرى الأربعين للأستاذ عباس محمود العقاد أنه جاهد بقلمه وحطم صرح الجهل فيقول:

جاهدت بالقلم الأبي محطما
صرحا بناه الأدعياء مشيدا
وسموت بالإنسان في تفكيره
لم تدخر وسعا ولا مجهودا
ياشاعرا رسم الجمال يراعه
قد نغَّم الفن العجاب قصيدا

وينفي الشاعر عن نفسه أنه يرثي الأستاذ الشاعر عباس العقاد إنما يرثي الأموات وأستاذنا العقاد حي بعلمه فيقول:

أتموت يا عقاد بعد مفاخر
تبقى تسابق للخلود خلودا؟
لا لن يموت المرء خلد ذكره
ويموت من يقضي الحياة بليدا
هيهات يرثيك القريض وإنما
هي لوعة الذكرى تصاغ نشيدا.

وصف الطبيعة

والوصف فن قديم من فنون الشعر العربي يرجع إلى العصر الجاهلي ولكن شاعرنا يسلك في الوصف مسلكا جديدا محمودا يعكس من خلاله هموم أمته والآلامها ومعاناتها من كافة أشكال الاستعمار وألوانه وأجناسه فها هو ذا يخاطب الوردة الذابلة قائلا:

عهدنا الورود تذيب الهموم
فما للهموم طوت وردتي؟!
أطلي برأسك كي تخبريني
فإني شقيقك في المحنة

ثم يبين شاعرنا أوجه الشبه والخلاف بينه وبين الوردة فيقول:

كلانا يريد السلام ويبغي
حياة الهناءة والعزة

وتخشين سطو الغريب ليسبي
ذويك، وأهفو لحريتي
وأحمل وحدي عبء أساك
وعبء خلاصي من محنتي
فأحطم عني وعنك القيود
وأنسج ألوية الرحمة
لينبت زيتوننا في الحقول
وبين السهول وفي الربوة

شاعر الحب والوفاء

وشاعرنا كان يتسم بالحب والوفاء لكل من حوله ولذلك فهو يتألم لفقد أحبابه، فها هو ذا يقول في قصيدته : (على قبر أبي):

قد كنت تملأ بالسعادة بيتنا
فكساه فقدك يا أبي بقتام
مات السرور بوجه أمي، وارتمى
في مقلتيها ظل حزن دام
لليوم قد لصق الحداد بثوبها
وجثت بجبهتها رؤى الإيلام
ولكم أراها يا أبي قد أسندت
بالكف رأسا ذاوي الأحلام

ولقد مات والد الشاعر وأمه لم تزل في ريعان شبابها، فوهبت حياتها لتربية أولادها وتنشئتهم النشأة الإسلامية الصحيحة حتى اختارها الله إلى جواره فقال فيها:

إن تموتي فسوف تلقين خلدا
في جوار المولى وحسن ثوابه
أسأل الله أن تنالي جزاء
من لدنه عنا بغير حسابه
وإلى اللقيا في جنان أعدت
عند ربي وفي كريم رحابه

والشاعر يأخذ العبرة من موت أعز أحبابه ويدرك أنه لا حق بهم لا محالة، ومن ثم فإنه يعد الزاد لهذا اليوم بالتقوى والعمل الصالح، ويطلب من ولده ألا يحزن لفراقه فيقول:

إذا مت يا ولدي
فلا تجزع ولا توجل
فلست سوى فرع
بعود لأصله الأول
أعد الزاد يا ولدي
ليوم الرحلة الأطول
لعل الله يجمعنا
بدار من هنا أفضل
فإن المرء مسؤول
ومرتهن بما يعمل

وبعد .. فها هوذا شاعرنا الأستاذ / عبدالحفيظ عبدالسميع صقر في ديوانه (خفقات قلب) قدم للإسلام كثيرا وأعطى الأدب الإسلامي أكثر وأكثر، ها هوذا الشاعر الوفي لأبيه وأمه وأسرته وأمته الإسلامية جمعاء، وما هذه السطور إلا لمسة وفاء لأستاذ جليل لم يبخل علينا بعلمه وتجربته ونصائحه، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. ■

الهوامش

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين، الناشر دار المعارف ١١١٩، كورنيش النيل، القاهرة، مصر.
(٢) مجلة الوعي الإسلامي، المحرم، ١٤١٤هـ، ص ١٠٨ .
(٣) الأبيات من ديوان خفقات قلب.

الكَرَم هو .. المسلم

في الحديث الشريف « لا تسموا العنب الكرم ، فإنما الكرم الرجل المسلم » ليس الغرض حقيقة النهي عن تسميته كرما ، ولكنه رمز إلى أن هذا النوع من غير الأناسي المسمى بالاسم المشتق من الكرم ، أنتم أحقاء بأن لا تؤهلوه لهذه التسمية غيرة للمسلم التقي أن يشارك فيما سماه الله تعالى، وخصه بأنه جعله صفته ، فضلاً أن تسموا بالكريم من ليس بمسلم ، فكأنه قال : إن تأتى لكم ألا تسموه مثلا باسم الكرم ، ولكن بالجفنة أو الحبَلة ، فافعلوا . وقوله « فإنما الكرم أي : فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرم المسلم».

(القاموس المحيط للفيروز آبادي).